كلمة هادئة

في

التصوف بين الإفراط والتفريط

بقلم

الدكتور/ عمر عبد الله كامل

تـمـهـــيـــــد :

" إن من أكبر المسائل التي قام حولها جدل فكري كبير ، مسألة التـصوف ، وأصـوله ومؤيداتـه الـشرعية ، وطرقه وأهدافه . ولم يتوقف هذا الجدل عند عصر معين ، بل استمر عبر عصور الفكر الإسـلامي ، فكـان في كل عصر ، بين مؤيد ومنكر ، ومناصر ومعارض ، ومتعصب ومتحامل .

والعجيب أنك تجد بين الفريقين مخلصين للحق ومتجردين له ، ومع ذلك لم يوصلهم إخلاصهم إلى نقطـة واحدة يجتمعون عليها ، بل على النقيض ، كلما أوغل كل منهما في محبته ازداد بعدا وتناقضا ، فكيف حـصل هذا ؟ ومريد الحق لابد أن يصل اليه !!! .

قال الدكتور عبدالحليم محمود شيخ الأزهر جواباً عن هذا التساؤل في تقديمه لكتاب "التعرف لمذهب أهل التصوف" لأبي بكر الكلاباذي : (إن أمر التصوف في الواقع ليس أمر جدل أو أخذ أو رد ، وإنما هو تعرف ، والتصوف تجربة ، والتجربة شعور ، والشعور ليس منطقا ولا برهانا ، إنما هو تعرف ، وقديما قالوا : مـن ذاق عرف ، وبالتالي فإن من لم يذق لم يعرف .

وكتاب المؤلف إذن ليس إلا محاولة للتعبير بالألفاظ عن الشعور المتدفق الفياض ، وهـذا التعبـير لايفهمـه حق فهمه إلا من شعر به ..) باختصار .

على أن الأشواق والأحوال والمواجيد يجب أن تكون مقيدة بقيود العلم الصادقة الدقيقة، فـالعلم والاتبـاع أولا ، والأحوال والمواجيد ثانيا . وإن كل الدخائل التي دخلت التصوف، فعكرت صفاءه ، ولونت سناءه ، دخلت إليـــه عن طريق الجهل ، ونقـــول عن مثل هؤلاء : (ليتهم لم يتصوفوا) .

وأقول : إن من تحقق ولم يتفقه تزندق كما قال العلماء ، ذلك أن الشريعة حاكمة على التصوف فكل ماخالف الشريعة لا وزن له ولا اعتبار .

وسيلاحظ القارئ كثرة النقول عن ابن تيميـة وابـن القـيم ليعتـبر المتهـورون مـن الـسلفيين بهـما فهـؤلاء المتهورون لم يعد لديهم ميزان يزنون به أمور الدين إلا الكلام ابن تيمية وابن القيم فوقعوا فيما يحذرون منـه من الغلو في مشليخ الصوفية فغالوا وأفرطوا فيهما.

تعريف التصوف

قال الكلاباذي رحمه الله تعالى في كتاب "التعرف" :

"لم سميت الصوفية صوفية ؟ قالت طائفة : إنما سميت الصوفية صوفية لصفاء أسرارها ، ونقاء آثارها .

وقال بشر بن الحارث : الصوفي من صفا قلبه لله .

وقال بعضهم : الصوفي من صفت لله معاملته فصفت له من الله عز وجل كرامته .

وقال قوم : إنما سموا صوفية لأنهم في الصف الأول بين يدي الله جل وعز ، بارتفاع هممهم إليه ، وإقبالهم بقلوبهم عليه ، ووقوفهم بسرائرهم بين يديه .

وقال قوم : إنما سموا صوفية لقرب أوصافهم من أوصاف أهل الصفة الذين كانوا على عهد رسول الله ، وقال قوم : إنما سموا صوفية للبسهم الصوف ... اهـ" .

وقال ابن تيمية : "وهؤلاء نسبوا إلى اللبسة الظاهرة ، وهي لباس الصوف ، فقيل في أحدهم (صوفي) ، وليس طريقهم مقيدا بلباس الصوف ولا هم أوجبوا ذلك ، ولا علقوا الأمر به ، لكن أضيفوا إليه لكونه ظاهر الحال" (١)

وقال العلامة محمد الخضر حسين شيخ الجامع الأزهر في كتابه "رسائل الإصلاح"(٢): اختلفوا في أصل كلمة الصوفية ، وذهبوا فيه مذاهب : أصحها أنها مأخوذة من الصوف ، لأن الزَّهاد كانوا يعمدون إلى لبس الصوف بعداً وتجنباً للبس الفاخر من الثياب .

وهناك آراء ضعيفة ، منها : أن الصوفية كانوا يقيمون بمسجد رسول اللهﷺ عابدين متفقهين لا يفارقونه إلا لجهاد عدو . وهذا الوجه لايوافق قاعدة النسب في اللغة ، فإن القاعدة تقضي أن يقال في النسب إلى صفة : صفية ، لا صوفية .

ومنها : أن الصوفية نسبة إلى آل صوفة ، تشبها لهؤلاء الزهاد بآل صوفة ، وهم قوم كانوا يخدمون الكعبة في الجاهلية ويتنسكون ، ويبعد هذا الوجه أن آل صوفة قد ذهبوا بذهاب عصر الجاهلية . وقد تسمى هؤلاء

---

(١) رسالة الصوفية والفقراء لابن تيمية ص ٢٥ .
(٢) ص ١٩٠ – ١٩١.

العباد والزهاد في الإسلام باسم الصوفية ، وقبلوا هذا الاسم ، ولا أحسبهم يرضون بنسبتهم ولو على وجه التشبيه إلى طائفة كانت في الجاهلية على غير هدى .

ومنها : أنها نسبة إلى الصوف على معنى أنهم آثروا الانكسار فكانوا كالصوفة المرمية ، وهذا وجه سخيف لا يلتفت إليه .

ومنها : أن الصوفية نسبة إلى الصف ، لأنهم في الصف الأول بين يدي الله تعالى . وقاعدة النسب لا تساعد على هذا الوجه ، كما أنها لاتساعد على أن يكون مأخوذا من الصفاء ، لصفاء نفوسهم وخلوص قلوبهم من شوائب الأهواء ، وسيئات الأخلاق .

وهذا الاسم حدث بعد عهد السلف ، قال السهروردي في كتاب "عوارف المعارف" : لم يعرف هذا الاسم إلى المائتين من الهجرة ، وذكر ابن تيمية جماعة من الزهاد منهم الفضيل بن عياض المتوفي سنة ١٨٧ . وقال : في عصرهم حدث اسم التصوف . وقال القشيري في الرسالة : واشتهر هذا الاسم ، يعني التصوف . قبل المائتين من الهجرة ، وذكر حسن صديق في كتاب "أبجد العلوم" : أن أول من دعى بهذا الاسم أبو هاشم الصوفي ، وقد توفي أبو هاشم هذا سنة ١٥٠ .

والتصوف : رياضة النفس ومجاهدة الطبع ، برده عن الأخلاق الرذيلة وحمله على الأخلاق الجميلة ابتغاء السعادة . وهذه الرياضة والمجاهدة تكون بالعكوف على العبادة والإعراض عن زخرف الدنيا وزينتها ، والزهد فيما يقبل عليه الجمهور من لذة مال أو جاه .[1] انتهى .

فهذا الاسم لم يكن شائعا في زمن الصحابة رضوان الله تعالى عليهم ، فقد كان القوم عبادا زهادا ، لم يختص فريق منهم بشعار ولا نحلة ، يمتازون بها عن البقية ، بل كان الجميع على محجة الهدى الواضحة ، يحيون ما أحياه القرآن والسنة ، تقيدوا بنصوصهما وأوامرهما فاتبعوهما ، وحملوا أنفسهم على لزوم الاتباع ، والميل عن الابتداع ، فكان عصرهم أرقى العصور وأزهاها ، بيد أنه لما تطاول الزمن بعد عصر الصحابة ، وفتحت الدنيا على الناس ، فمالت بهم ، ومالوا بها ، وظهرت بوادر الفساد ، بقي فريق من الناس متبعين خطة السلف ، ناهجين نهجهم ، عاملين على إحياء السنن وإماتة البدع ، صرفوا قلوبهم عن الدنيا

---

(١) رسائل الإصلاح ص ١٩٠ – ١٩١

وزخرفها ، وزهدوا فيها زهدا حقيقيا ، فإن حازوا على شيء منها ، فهو بأيديهم لا بقلوبهم .
عرفت هذه الفئة من الناس بالصوفية ، وهو اسم محدث كما علمت ، والأقرب إنما سموا به ، لأن شعارهم كان لبس الصوف .

فالتصوف هو تنقية الظاهر والباطن من المخالفات الشرعية ، وتعمير القلب بذكر الله تعالى ، ومراقبته وخشيته ورجائه ، والسير في العبادات والأعمال على النهج الشرعي طبق السنة الشريفة ، وخلافا للبدعة السيئة التي يحظر الإسلام التلبس بها .

أنواع التصوف

١ – التصوف النقي :

وقال العلامة حسنين محمد مخلوف في تقديمه لكتاب (رسالة المسترشدين) للمحاسبي :

"التصوف الإسلامي تربية علمية وعملية للنفوس ، وعلاج لأمراض القلوب ، وغرس للفضائل، واقتلاع للرذائل ، وقمع للشهوات ، وتدريب على الصبر والرضا والطاعات .

وهو مجاهدة للنفوس ومكابدة لنزعاتها ، ومحاسبة دقيقة لها على أعمالها وتروكها ، وحفظ للقلوب عن طوارق الغفلات وهواجس الخطرات ، وانقطاع عما يعوق السالك في سيره إلى الله، وزهادة في كل مايلهي عن ذكر الله ويعلق بالقلوب سواه .

وهو معرفة لله ويقين ، وتوحيد لله وتمجيد ، وتوجه إلى الله وإقبال عليه وإعراض عما سواه، وعكوف على عبادته وطاعته ، ووقوف عند حدوده ، وتعبد بشريعته ، وتعرض لنفحاته وهباته التي يخص بها أولياءه وأحبابه فضلا منه وكرما .

وجملة القول فيه قبل تدوينه كفن إسلامي وبعده : أنه علم وحكمة ، وتبصرة وهداية ، وتربية وتهذيب، وعلاج ووقاية ، وتقوى واستقامة ، وصبر وجهاد، وفرار من فتنة الدنيا وزينتها وابتعاد.

فالتصوف كما ترى : لب الشريعة وروحها ، وثمرتها وحكمتها . وقد قال سيد الطائفة الجنيد : علمنا هذا مقيد بالكتاب والسنة ، ومن لم يحفظ القرآن ، ولم يكتب الحديث لايقتدى به في هذا الأمر ، والطرق كلها مسدودة على الخلق إلا على من اقتفي أثر الرسول ﷺ .

وقد اختص هذا النوع من العلم الشرعي في عصر التدوين - كما أشار إليه ابن خلدون في "مقدمته" - باسم (التصوف أو علم الحقيقة) ، كما اختص النوع الآخر منه الخاص بالأحكام الفرعية في العبادات والمعاملات باسم (الفقه أو علم الشريعة) .

٢- التصوف المنتحل المبتدع :

وهناك تصوف زائف انتحله قديما فئام من الناس ، أشربوا تعاليم الباطنية الحلولية ، وتدثروا بدثار الصوفية ، اجتذاباً للعامة ، وتغريراً وخداعاً وتلبيساً ، ودسوا في التصوف إلحادهم ومقالاتهم الشنيعة في الدين إضلالا للمسلمين ، هؤلاء ليسوا من الصوفية ولا التصوف في شيء ، وينكرهم كل الإنكار أولئك الأعلام الذين ذكرناهم وأضرابهم ، ويحسبونهم أدعياء في نسبه مزورين ، وزنادقة ملحدين .

وقد كشف خبأهم ، وفند مزاعمهم ، وأبطل تصوفهم كثير من الأئمة.

٣- التصوف المنحرف المزوَّر :

وهناك آخرون انتسبوا إلى الصوفية زوراً ، واتخذوها سمة وحرفة ، وتوارثوا فيما بينهم بدعا وشعارات زائفة ، وتقاليد منكرة يبرأ منها التصوف وأعلامه من أولي العلم واليقين .

وهؤلاء كذلك أدعياء في التصوف ، دخلاء في الصوفية ، مبتدعون آثمون .

وإحقاقا للحق ، وإنصافا للصادقين : يجب أن لا يحملوا أوزار أولئك الأدعياء المبطلين ، وأن لا يطلق القول في ذم التصوف والصوفية ، بل يعطى كل فريق حقه من المدح أو الذم ، ومن الترغيب أو التحذير ، دون تعصب أو تحيف " [١] (انتهى).

---

(١) تفريظ العلامة الشيخ حسنين محمد مخلوف لرسالة المسترشدين بتحقيق الشيخ عبدالفتاح أبوغده رحمه الله تعالى ص٢٣- ٢٨ باختصار .

الطوائف المدسوسة في التصوف :

نعم إن تلك الطوائف التي اندست بين القوم ، أو دست من أقوالها المشبوهة في كتبهم ومقولاتهم وأشعارهم حتى شوشت وشوهت على الخلص منهم ، لا ينبغي أن تحول بيننا وبين إنصاف القوم ، وتحرير أقوالهم حتى نعرف سقيمها من صحيحها ، ونفيد منها ، ونعرف معروفها وننكر منكرها ، قال ابن تيمية: (وقد انتسبت إليهم طوائف من أهل البدع والزندقة ، ولكن عند المحققين من أهل التصوف ليسوا منهم . أهـ)[٢].

إن أكثر نقاد التصوف، إنما عرفوا الصوفية من خلال الزبد الطافي على السطح، وغاب عنهم البحث في الأعماق، والتعرف على ما ينفع الناس ، وما ذلك إلا بسب تعصب الكثير منهم، وضيق أفقهم، وسطحية نظرتهم، وغاب عنهم أن "في كل ميدان من الميادين أدعياء، نجدهم في الميدان الديني، وفي الميدان السياسي، وفي الميدان العلمي، ونجدهم كذلك في ميدان التصوف" كما يقول الدكتور عبد الحليم محمود في تحقيقه لكتاب "المنقذ من الضلال" للغزالي[٣]

"وليس من الإنصاف أن تحمل على التصوف أوزار الأدعياء واللصقاء ، الذين يندسون في صفوفه نفاقا واحتيالا ، أو جهلا وفضولا ، فإنه ما من نحلة في القديم والحديث سلمت من أوزار اللصقاء الذين ينتمون اليها من غير أهلها .." كما يقول عباس محمود العقاد في كتابه "التفكير فريضة إسلامية" .

---

(٢) مجموعة الفتاوي (ج١١ – ص١٨)

(٣) ص ٢٦٧ وهذا ابن تيمية يحكم على كثير من أتباعه الذين لم يفرقوا بين الصالح والطالح.

بين الصوفية والسلفية

الصوفية الحقة لا تخالف السلفية المخلصة من أتباع المذاهب السنية الأربعة، التي تريد تنقية الإسلام من كل البدع والشوائب ، التي لحقت به عبر العصور التي مر بها .

فالصوفي يهدف إلى تنقية نفسه وقلبه من كل شوائب الأغيار ، حتى تصبح خالصة لله سبحانه وتعالى ، والسلفي المخلص يهدف إلى تنقية الإسلام من البدع والدخائل ، فلا تناقض بينهما ولا تعارض ، ولا يوجد التعارض إلا حيث يفقد الإخلاص ، ومريد الحق لابد أن يصل إليه .

فالتصوف الصحيح هو الإسلام الكامل في مقاصده وأهدافه ، والصوفية السابقون وكثير من اللاحقين ، استقام سلوكهم على هذا المبدأ وفي منهجه .

هذا هو التصوف الذي كان عليه القوم رضي الله تعالى عنهم. فقد سئل ولي الله شاه نقشبندي : بماذا يصل العبد إلى طريقكم ؟ قال : بمتابعة سنة رسول الله ﷺ .

وقال رحمه الله تعالى أيضا : إن طريقتنا من النوادر ، وهي العروة الوثقى ، وما هي إلا التمسك بأذيال متابعة السنة السنية ، واقتفاء آثار الصحابة الكرام .. أ.هـ .

ومن وصايا الشيخ خالد رحمه الله تعالى إلى بعض مريديه في العراق . أما بعد : فأوصيكم بالتأكيد الأكيد بشدة التمسك بالسنة السنية ، والإعراض عن الرسوم الجاهلية ، والبدع الردية، وعدم الاغترار بالشطحات الصوفيةﷺواعلموا أن أحبكم إلي أقلكم اتباعا وعلاقة بأهل الدنيا ، وأخفكم مؤونة ، وأشغلكم بالفقه والحديث .. أ.هـ .

ولنستمع إلى الإمام الرباني ، مجدد الألف الثاني ، الشيخ أحمد الفاروقي السرهندي ، رحمه الله تعالى ، وهو يحذر من البدع ويأمر بتركها ، فيقول : "قال عليه الصلاة والسلام : (ما أحدث قوم بدعة ، إلا رفع مثلها من السنة) رواه الإمام أحمد في مسنده [١].

---

(١) من كتاب "العلامة المجاهد الشيخ محمد الحامد" للأستاذ عبد الحميد طهماز .

الكتاب والسنة أولا وقبل كل شيء :

" والجنيد رحمه الله تعالى ، سيد القوم وإمامهم – كما وصفه القشيري – قال في هذا الموضوع : "من لم يحفظ القرآن ، ولم يكتب الحديث ، لايقتدى به في هذا الأمر ، لأن علمنا هذا مقيد بأصول الكتاب والسنة ا .هـ .
وقال أيضا : "علمنا هذا مشيد بحديث رسول الله ﷺ، الطرق كلها مسدودة على الخلق ، إلا على من اقتفي أثر الرسول ﷺ واتبع سنته ولزم طريقته .. أ.هـ.

وقال رحمه الله تعالى : " مذهبنا هذا مقيد بالأصول : بالكتاب والسنة ، فمن لم يحفظ الكتاب ، ويكتب الحديث ، ويتفقه ، لا يقتدى به" انتهى [1]

وقال الشيخ الشعراني رحمه الله تعالى في كتابه : "كشف الغمة" ١ : ١٠ : "كل طريق لم يمش فيه الشارع ﷺ فهو ظلام ، ولايكون أحد ممن مشى فيه على يقين من السلامة وعدم العطب" . وقال رحمه الله تعالى : دوروا مع الشرع كيف كان ، لا مع الكشف فلأنه يخطيء ، وينبغي إكثار مطالعة كتب الفقه ، عكس ماعليه المتصوفة الذين لاحت لهم بارقة من الطريق فمنعوا مطالعة الفقه ! وقالوا : إنه حجاب ! جهلا منهم!" [2]

(١) "إغاثة اللهفان" للشيخ ابن القيم رحمه الله تعالى ١ : ١٢٥ .

(٢) نقله ابن العماد الحنبلي في "شذرات الذهب" في ترجمة الشعراني ٨ : ٣٧٤ .

التصوف بين مادحيه وقادحيه

" ظلم التصوف الإسلامي في كثير من قراءات الناس له ، ربما بسبب المصطلح ، وربما بسبب انحراف بعض المنتسبين له مما أشاع عنه ، أنه وافد ليست الحياة الإسلامية بحاجة إليه ، فضلا عن أنه مبتدع ، تسبب في إبعاد ذويه عن الإسهام الحضاري وعن الارتباط بالأصول الشرعية ، وهذه الأسباب وغيرها – بصرف النظر عن صحتها أو صحة بعضها أو عدم صحته – تقرر حقيقة أن هذا الجزء من تراث المسلمين أصابه قسط كبير من الظلم ، لانغالي إذا قلنا لم يصب بمثله جزء آخر من تراث حضارتنا .

وقد عرف تاريخ الفكر الإسلامي اتجاهات لنقد التصوف بعضها من داخله لتصحيح المسار ، وبعضها من خارجه .

ذهب أهل هذا الأخير مذاهب ، أحدها : مَدَح حتى قَبِل الأخطاء ، وسوغها بالتأويل ، وثانيها : غض طرفه عن كل حسن في هذا التراث ، فلم ير فيه إلا كل خلل وفساد ، وانطلق من حالات فردية إلى حكم عام وموقف شامل ، وثالثها : توسط لكنه لم يكن على شهرة السابقين .

وقد عانى الفكر الصوفي من المذهبين الأولين (المادح والقادح) ، وحجبا جزءا من الحقيقة عن الناس ، الأمر الذي جعل كثيرا من العلماء والباحثين قديما وحديثا ينادون بضرورة التزام منهج وسط بين الرفض المطلق والقبول المطلق .

وتعددت أشكال نداءاتهم ، فمن قائل بضرورة المنهجية قبل الحكم والنقد ، ومن قائل بضرورة النظر إلى كل زوايا التصوف ، واعتبار كل مراحله عند التقسيم .

وقديماً تبنى هذه الدعوة علم ابن تيمية، فنادى بخطأ القبول المطلق والرفض المطلق ، وجعل الحكم هوى إن كان صادرا عن حب مطلق أو بغض مطلق . ذلكم هو ابن تيمية الذي سار في هذا الأمر على درب سابقين له من العلماء الحنابلة .

وإذا كان هناك اتفاق بين دعوة المعاصرين ودعوة ابن تيمية ومن سبقه ، فإن هناك فارقا أساسيا هو أن المعاصرين لم يقدموا تصورا كاملا للمنهج الذي ينبغي أن تكون عليه قراءة التصوف ، بل أشاروا إلى بعض

النقاط بإيجاز وإجمال ، أما ابن تيمية فقد قدم تصورا أكثر تفصيلا عن المنهج في نقد التصوف ، بل وطبقه في النظر إلى مراحل التصوف ، والى المصطلح ، والى رجال التصوف ونحو هذا .

إن هذا التصور عند ابن تيمية مبثوث في شتى كتاباته عن التصوف ، وعن السلوك، الأمر الذي لم يجعله شهيرا من الدارسين ، وبخاصة أنه أشيع عن عداء للتصوف الكثير وهو مخالف للواقع ، كما سيأتي بيانه" .

ومن أصحاب الاتجاه السليم والنظرة الموضوعية إلى التصوف فضيلة الدكتور - يوسف القرضاوي، فيقول في كتابه ((فتاوى معاصرة)) (١ : ٧٣٥-٧٤٣) تحت عنوان :حقيقة الصوفية

جاء الإسلام بالتوازن في الحياة ، يعطي كل ناحية حقها ، ولكن الصوفية ظهروا في وقت غلب على المسلمين فيه الجانب المادي والجانب العقلي .

الجانب المادي ، نتج عن الترف الذي أغرق بعض الطبقات ، بعد اتساع الفتوحات ، وكثرة الأموال ، وازدهار الحياة الاقتصادية ، مما أورثت غلواً في الجانب المادي . مصحوباً بغلو آخر في الجانب العقلي ، أصبح الإيمان عبارة عن ((فلسفة)) و ((علم كلام)) ((وجدل)) ، لا يشبع للإنسان نهماً روحياً ، حتى الفقه أصبح إنما يعنى بظاهر الدين لا بباطنه ، وبأعمال الجوارح . لا بأعمال القلوب وبمادة العبادات لا بروحها .

ومن هنا ظهر هؤلاء الصوفية ليسدوا ذلك الفراغ ، الذي لم يستطع أن يشغله المتكلمون ولا أن يملأه الفقهاء ، وصار لدى كثير من الناس جوع روحي ، فلم يشبع هذا الجوع إلا الصوفية الذين عنوا بتطهير الباطن قبل الظاهر ، وبعلاج أمراض النفوس ، وإعطاء الأولية لأعمال القلوب ، وشغلوا أنفسهم بالتربية الروحية والأخلاقية ، وصرفوا إليها جل تفكيرهم واهتمامهم ونشاطهم . حتى قال بعضهم :

التصوف هو الخلق ، فمن زاد عليك في الخلق فقد زاد عليك في التصوف .

وكان أوائل الصوفية ملتزمين بالكتاب والسنة ، وقافين عند حدود الشرع ، مطاردين للبدع والانحرافات في الفكر والسلوك .

ولقد دخل على أيدي الصوفية المتبعين كثير من الناس في الإسلام ، وتاب على أيديهم أعداد لا تحصى من العصاة ، وخلفوا وراءهم ثروة من المعارف والتجارب الروحية لا ينكرها إلا مكابر ، أو متعصب عليهم .

غير أن أخرين منهم غلوا في بعض الجوانب ، وانحرفوا عن الطريق السوي ، وعرفت عن بعضهم أفكار غير إسلامية ، كقولهم بالحقيقة والشريعة ، فمن نظر إلى الخلق بعين الشريعة مقتهم ، ومن نظر إليهم بعين الحقيقة عذرهم .

فهذا النوع من الغلو ، ومثله الغلو في الناحية التربوية غلواً يضعف شخصية المريد كقولهم : إن المريد بين يدي شيخه كالميت بين يدي غاسله ، ومن قال لشيخه : لم ؟ لا يفلح . ومن اعترض انطرد .

هذه الاتجاهات قتلت نفسيات كثير من أبناء المسلمين ، فسرت فيهم روح جبرية سلبية.

ولكن كثيراً من أهل السنة والسلف قَوَّم علوم الصوفية ، بالكتاب ، والسنة ، كما نبه على ذلك رجلا كابن القيم. فكتب عن التصوف كتاباً قيما ، هو كتاب (مدارج السالكين إلى منازل السائرين) ومدارج السالكين عبارة عن شرح لرسالة صوفية صغيرة اسمها : "منازل السائرين إلى مقامات : إياك نعبد وإياك نستعين)) لإسماعيل الهروى الحنبلي .

والحقيقة أن كل إنسان يؤخذ من كلامه ويترك ، والحكم هو النص المعصوم من كتاب الله ومن سنة رسوله فنستطيع أن نأخذ من الصوفية الجوانب المشرقة ، كجانب الطاعة لله ، وجانب محبة الناس بعضهم لبعض ، ومعرفة عيوب النفس ، ومداخل الشيطان ، وعلاجها ، واهتمامهم بما يرقق القلوب ، ويذكر بالآخرة .

نستطيع أن نعرف عن هذا الكثير عن طريق بعض الصوفية كالإمام الغزالى مع الحذر من شطحاتهم ، وانحرافاتهم وغلوائهم ، ووزن ذلك بالكتاب والسنة ، وهذا لا يقدر عليه إلا أهل العلم وأهل المعرفة ". [1]

(١) فتاوى معاصرة ١ : ٧٣٥ – ٧٣٨.

فتوى ابن تيمية عن التصوف والصوفية :

ولقد وجدت ابن تيمية – مع صرامته، وشدته – يقف من التصوف والصوفية هذا الموقف الوسط العدل ، وهذا من إنصافه وسعة علمه ، ورحابه أفقه.

وقد نقلت عنه في فتواه الثانية عن التصوف قوله بعد أن سئل عن الصوفية ، فكان جوابه الذي ذكره في رسالته عن ((الفقراء)) وهو أعدل ما قيل في القوم .

تقويم ابن القيم للصوفية :

وكذلك أنصف الصوفية ابنُ القيم ، كما تجلى ذلك في شرحه الواسع العميق المتوازن لرسالة العلامة الهروي ((منازل السائرين)) وقد كان ابن القيم يعظم الهروي ويوقره ، لأنه كان حنبلياً ، ولهذا حاول أن يشرح كلامه شرحاً يُقرِّبه إلى منهج الكتاب والسُنة،وهدي سلَفَ الأمة ، ويحمله على أفضل الوجوه الممكنة ، ومع هذا لم يملك في كثير من الأحيان إلا أن ينكر عليه ، فالحق أحق أن يتبع ، والرجال يُعرفون بالحق ، وليس الحق يُعرف بالرجال .

ومن أوضح ما تبين فيه ذلك التوجه المعتدل قوله في شرح ما ذكره الهروي عن منزلة ((الرجاء)) وما جاء فيه من شطحات وتجاوزات :

وبعد محاولة ابن القيم لحمل كلام الهروى على أحسن المحامل قال :

((هذا ونحوه من الشطحات التي تُرجى مغفرتها بكثرة الحسنات ويستغرقها كمال الصدق، وصحة المعاملة ، وقوة الإخلاص ، وتجريد التوحيد ، ولم تضمن العصمة لبشر بعد رسول الله ﷺ .

وهذه الشطحات أوجبت فتنة على طائفتين من الناس . إحداهما : حُجبت بها عن محاسن هذه الطائفة ، ولطف نفوسهم ، وصدق معاملتهم ، فأهدروها لأجل هذه الشطحات ، وأنكروها غاية الإنكار ، وأساءوا الظن بهم مطلقاً ، وهذا عدوان وإسراف . فلو كان كل مَن أخطأ أو غلط تُرك جملة ، وأهدرت محاسنه ، لفسدت العلوم والصناعات ، والحكم ، وتعطلت معالمها .

والطائفة الثانية : حُجبوا بما رأوه من محاسن القوم ، وصفاء قلوبهم ، وصحة عزائمهم ، وحُسْن معاملاتهم عن رؤية عيوب شطحاتهم ، ونقصانها . فسحبوا عليها ذيل المحاسن . وأجروا عليها حكم القبول والانتصار لها . واستظهروا بها في سلوكهم ، وهؤلاء أيضاً معتدون مفرطون .

والطائفة الثالثة : – وهم أهل العدل والإنصاف – الذين أعطوا كل ذي حق حقه ، وأنزلوا كل ذي منزلة منزلته ، فلم يحكموا للصحيح بحكم السقيم المعلول ، ولا للمعلول السقيم بحكم الصحيح . بل قبلوا ما يُقبل ، وردوا ما يرُد .

وهذه الشطحات ونحوها هي التي حَذر منها سادات القوم ، وذموا عاقبتها ، وتبرؤوا منها ، حتى ذكر أبو القاسم القشيري في رسالته : أن أبا سليمان الداراني رئي بعد موته ، فقيل له : ما فعل الله بك ؟ فقال : غفر لي . وما كان شيء أضر علي من إشارات القوم . [1]

(١) انظر : "مدارج السالكين" ٢/ ٣٧ – ٤٠ طبع السنة المحمدية بمصر .

أركان التصوف

يقوم التصوف على ركنين أساسيين: أولهما الذكر ، وثانيهما الشيخ المرشد .

أولا – الذكر

حقيقة الذكر : قال الكلاباذي – رحمه الله تعالى – : "حقيقة الذكر أن تنسى ماسوى المذكور، لقوله سبحانه وتعالى : (واذكر ربــك إذا نسيت)[1] يعني إذا نسيت مادون الله فقد ذكرت الله.

وقال النبيﷺ : "سبق المفردون ، قيل : ومن المفردون يارسول الله ؟ فقال : الذاكرون كثيرا والذاكرات" ، والمفرد : الذي ليس له معه غيره . وقال بعضهم : الذكر طرد الغفلة . فإذا ارتفعت الغفلة فأنت ذاكـر وإن سكت" .

فوائد الذكر :

في الذكر من الفوائد والخصوصيات ما لا يحصى ، وقد عد ابن القيم في (الوابل الصيب) للـذكر أكثـر مـن مائة فائدة ذكر منها في الفائدة العاشرة : (أنه يورث الذاكر المراقبة حتى يدخله في باب الإحسان ، فيعبد الله تعالى كأنه يراه ، ولا سبيل للغافل عن الذكر إلى مقام الإحسان ، كما لاسبيل للقاعد إلى الوصول إلى البيـت .. أ.هـ .

كما ذكر في الفائدة الثانية عشرة والثالثة عشرة : أنه يورث القرب منه ، فعلى قدر ذكره لله عـز وجـل يكـون قربه ، ويفتح له بابا عظيما من أبواب المعرفة ، وكلما أكثر من الذكر ازداد معرفة.

وذكر في الفائدة الثانية والأربعين : أن الذاكر قريب من مذكوره ، ومذكوره معـه معيـة بـالقرب والولايـة والمحبة والنصرة والتوفيق كقوله تعالى : (إن الله مع الـذين اتقـوا) ، (والله مـع الـصابرين) ، (وإن الله مـع المؤمنين) ، (ولاتحزن إن الله معنا) .

---

(١) [الآية ٢٤/الكهف]

وللذاكر مع هذه المعية نصيب وافر ، كما في الحديث الإلهي : "أنا مع عبدي مـاذكرني وتحركـت بي شـفتاه" وفي أثر آخر : "أهلي أهل ذكري وأهل مجالستي .." إلخ .
قال : والمعية الحاصلة للذاكر معية لا يشبهها شيء ، وهي أخص مـن المعيـة الحاصـلة للمحـسن والمتقـي ، وهي معية لا تدركها العبارة ولا تنالها الصفة ، وإنما تعلم بالذوق ، وهي مزلة أقـدام إن لم يـصحب العبـد فيها تمييز بين القديم والمحدث ، بين الرب والعبد ، بين الخالق والمخلوق، بين العابد والمعبود .. ا.هـ .

شمول ذكر الله تعالى لأنواع كثيرة :

قال الحافظ ابن حجر[1]: "لايتعين للذكر شيء مخصوص لايجزىء غيره ، بل كل ماصدق عليه ذكر أجـزأ ، ويدخل في ذكر الله تعالى : تلاوة القرآن ، وقراءة الحديث النبوي الشريف ، والاشتغال بالعلم الشرعي" .
أنواع الذكر عند رسول الله :
قال الشيخ ابن القيم في كتابه ((زاد المعاد)) في (فصل في هديه ﷺ في الذكر)
وكان النبى صلَّى الله عليه وسلَّم أكمل الخلق ذكراً لله عزَّ وجل ، بل كان كلامه كله في ذكـر الله ومـا والاه ، وكان أمره ونهيه وتشريعه للأمة : ذكراً منه لله تعالى . وإخباره عن أسماء الرب وصفاته وأحكامـه وأفعالـه ووعده ووعيده : ذكراً منه لله تعالى . وثناؤه عليه بآلائه وتمجيـدُه وحمـدُه وتـسبيحه : ذكـراً منـه لله تعـالى . وسؤاله ودعاؤه إياه ورغبته ورهبته : ذكراً منه لله تعالى . وكان سكوته وصمته : ذكراً منه لله تعالى بقلبه .
فكان ذاكراً لله تعالى في كل أحيانه ، وعلى جميع أحواله ، فكان ذكره لله تعالى يجري مع أنفاسه : قائماً وقاعداً، وعلى جنبه، وفي مشيه وركوبه، ومسيره ونزوله، وظعنه وإقامته))[2].
انتهى كلام ابن القيم رحمه الله تعالى.

---

(٢) "فتح الباري" ١٣ : ٢٣
(١) ٣٧:٢

مجالس الذكر هي مجالس العلم والفقه :

قال الحافظ ابن رجب الحنبلي رحمه الله تعالى في ((شرح حديث العلم))[١]: ((وفي الحديث المعروف عن النبى صلَّى الله عليه وسلَّم : ((إذا مررتم برياض الجنة فارتعوا ، قالوا : وما رياض الجنة ؟ قال : حلق الذكر)) .

وكان ابن مسعود رضى الله عنه إذا ذكر هذا الحديث قال : أما إني لا أعني القصاص ، ولكن حلق الفقه .

ولما حضرت معاذ بن جبل الوفاة قال : مرحباً بالموت ، مرحباً بزائر جاء على فاقه ، لا أفلح من ندم ، اللهم إنك تعلم أنى لم أكن أحب البقاء في الدنيا لجري الأنهار ، ولا لغرس الأشجار ، ولكن كنت أحب البقاء لمكابدة الليل الطويل ، ولظمأ الهواجر في الحر الشديد ، ولمزاحمة العلماء بالرُكب في حلق الذكر .

ويعني بحلق الذكر هنا : حلق العلم . ومنه قوله تعالى:(فاسألوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون).

وقال عطاء الخراساني : في مجالس الذكر مجالسُ الحلال والحرام، كيف تشتري وتبيع، وتصلي وتصوم، وتنكح وتطلق، وتحجُ، وأشباهُه هذا .

وكان أبو السوار العدوي في حلقة يتذاكرون فيها العلم، ومعهم فتى شابٌ فقال لهم : سبحان الله والحمد لله، فغضب أبو السوار وقال : ويحك في أي شئ كنا إذاً؟! كما رواه الإمام أحمد في كتاب ((الزهد))[٢]

وروى الدارمي[٣]: عن وهب بن منبه قال : مجلس يتنازع فيه العلم أحب إلي من قدره صلاة ، لعل أحدهم يسمع الكلمة فينتفع بها سنة أو مابقي من عمره .

ومن مجالس الذكر أيضا : مجالس العلم التي يذكر فيها تفسير القرآن وتروى فيها سنة رسول الله ، ويعلم فيها الفقه في الدين .

ومجالسه أفضل من مجالس ذكر الله بالتسبيح والتحميد والتكبير ، لأنها دائرة بين فرض عين أو فرض كفاية ، والذكر المجرد تطوع محض[٤] .

---

(٢) ص١٧-٢١

(٣) ص ٣١٦-٣١٧ .

(٤) في سننه في (باب فضل العلم والعالم) ١ : ٩٥

(٥) من تعليقات العلامة الشيخ عبدالفتاح أبو غدة - رحمه ا - على "رسالة المسترشدين" ص ١٠٩ – ١١١.

الذكر المشروع والذكر الممنوع :

" هذا وذكر الله تعالى باللسان، سراً وجهراً بانفراد أو جماعة مشروع بشروطه وآدابه ، ولكـن الـذكر الـذي يقوم به بعضُ الناس، بحركات موزونة مرتبة، وترنيمات متصنعة بأصـوات مُطربـة، وقفـز ووثـب، ونـط وجذب، وانحناء للأمام ورفع، والتفات عنيف ودفـع، ودوران بالحلقـات، وضرب للأقـدام عـلى إيقـاع الكف والنغمات، تنبو الفطُر السليمة عنه، و يتبرأ القلبُ الخاشعُ منه، لو خشع قلبُ هذا لخشعت جوارحُه، كما قاله الإمام التابعى الجليل سعيد بن المسيب رضي الله عنه وأشدُ من هذا نُكراً: أنهم يذكرون اسـم (الله) سبحانه، في أول دوران حلقاتهم بلفظ هادئ مفهوم، ثم يُسرعون ويُسرعون بالذكر والخلع والوثب، حتى لا يُفهم عنهم ما يقولون ! فما هى إلا أصوات تنخفض وترتفع، وأنفاس مبهورة تـشتد وتنـدفع، وهمهمـة تتردد، وحركات تتجدد، ويعُدون ذلك ذكراً لله ! فإنا لله – من قلة الأدب مع الله – وإنا إليه راجعون .

جاء رجل إلى الإمام أحمد بن حنبل رضى الله عنه، فسأله عن قراءة القرآن بـالتلحين، فمنعـه وقـال لـه : لا يجوز، فقال الرجل : ولم لا يجوز ؟ فقال له الإمام أحمد : ما اسمُك ؟ قال : محمد، قال له : أيعجبك أن يقال لك : يامُوحامد[1].

فالذكر لله تعالى يقومُ على تعظيم المذكور سبحانه، وعـلى تـوقير اسـمه وإجلالـه، وإكبـاره وإعظامـه، ولا يهولنك كثرةُ الفاعلين لهذا ! فهم من العوام في فقه الـدين، والأدب مـع رب العـالمين . فـانظر إلى أحـدهم كيف يكره (التلحين) في اسمه، ولا يكرهه في اسم الله تعالى وكلامه سبحانه !! .

وما عُهد فعلُه من السلف في القرون المشهود لها بالخير . وما يقال في تعليل تلك الحركـات والوثبـات أنهـا لمنع الخاطر أن يشتغل بغير الله تعالى، فهو مردود بما عُرف من حال السلف، فقـد كـانوا أحـرص منـا عـلى حفظ خواطرهم وقلوبهم وجعلها مع الله ولم يكونوا يفعلونه، بل ذُكر لهـم فـأنكروه أشـد الإنكـار، وهـم الأئمة المقتدى به، والمرجوعُ إليهم .

(١) الإمام ابن الُهمام في ((فتح القدير))١:١٧٣ في (باب الأذان) .

تحريم التحريف في أسماء الله الحسنى :

ويشترط أيضا في الجهر أن لايكون تحريف في أسماء الله الحسنى ، كما يشترط ألا ترافقه حركات جماعية منتظمة تشبه حركات الراقصين كما سبق بيانه .

قال العلامة الشيخ محمد الحامد : "والذي نراه من بعض متصوفة عصرنا من الحركات الزائدة حال الذكر ، إن كانت من وجد صحيح ووارد قوي ، أفقد صاحبه التماسك حتى غدت حركاته كحركات المرتعش ، فلا إثم عليه ولا لوم ولا محذور ، وانه في حال غالبة ، ومالم يكن كذلك ، فإن لم تشبه حركاته حركات المخنثين فلا ، أيضا . أما إن أشبهتها وكانت حركات جماعية بخفض ورفع على مقدار معلوم ، لايزيد أحدهم ولا ينقص عن الآخرين شيئا ولو يسيرا ، وكان شبيهاً بالرقص ، فإن الشرع يمنع من هذا ويلزم الوقوف عند الأدب الشرعي الإسلامي ، والذكر المحرف ممنوع ، والواجب النطق باسم الله الكريم كما أنزله الينا دون تغيير ، والإنشاد مسموح فيه إن لم يكن حاويا معاني غير صحيحة كالقول بالحلول وما إليه ... أ.هـ .

وقال أيضا : "إن الغيرة على اسم الله المجيد ، تحمل صاحبها على النصح بالتزام تصحيح حروفه والنطق به تاما كاملا ، فإنه أكرم الأسماء وأمجدها . وإن المرء ليغضب إذا نودي باسمه الشخصي محرفا ، فكيف باسم الله المجيد ! وهو سبحانه أحب إلى المؤمن من نفسه ، ومن كان كذلك ذاق حلاوة الايمان على ماجاء في الحديث النبوي الشريف .

وأما الذكر بلفظ "آه" طيا لما في القلب من اسم "الله" وحبسا للنفس بالهمزة منه ، ثم تصريفا له بالهاء الصاعدة من القلب للتفريج عن قلوب المنتهين ، ولتحريك قلوب المبتدئين ، وللاستعانة على سرعة الاستحضار ، فأمر متوقف على ورود الشرع بأن لفظ "آه" من أسمائه تعالى ، التي هي توقيفية ليس للاختراع إليها سبيل ، نعم ينسب إلى بعض الصوفية أنهم يثبتونه اسما له تعالى ، وليتهم بينوا دليل هذه التسمية من دليل سمعي – كتاب أو سنة – فإن الأمر من حيث هو متوقف عليهما . وبعد : فما الذي يضر إخواننا الذاكرين لله تعالى أن يدعوا ما فيه شبهة ، إلى ماليس فيه شبهة وقد قال فقهاؤنا رضي الله تعالى

عنهم : إذا ترددنا في شيء بين كونه بدعة أو سنة ، فتركه لازم .. أ.هـ . وإلى الفقهاء الرجوع في الأحكـام لا إلى المفسرين والمحدثين والصوفية ، على احترامنا لهم .

ثانيًا – الشيخ المرشـــدُ

وهو الدعامة الثانية التي يقوم عليها صرح التصوف ، ولا بد لكل من أراد سلوك الطريق مـن شـيخ يدلـه عليه ويرشده إليه، يضع له العلامات وينبهه إلى المزالق والمخاطر، يبين له الدسم ويبعده عن السم، يستمع إلى أقواله ويتلقى من أحواله .

ومن حيث إن الإنسان جاهل إلا من علمه الله تعالى ، كان الـشيخ المرشـد العـارف بـالله تعـالى، والبـصير بطريق الوصول إليه، أصلا في الطريق لا يهمـل، ولا يتغـاضى عنـه كـدليل مرافـق، ورفيـق موافـق، والله سبحانه وتعالى هو الهادي إلى سواء السبيل. وليس للشيخ إلا الدلالة بـالقول والفعـل، وبالحـال الـصالحة التي تسري بالتوجه السليم والدعاء للمريد السالك في الطريق، ولا نكران لسريان الحال، فإنا نرى الحماسة والحزن والفرح، نرى كل هذه وأمثالها، تسري من نفس إلى نفس ومن قلب إلى قلب. فهذا التعليم بالحـال والأفعال وليس الكلام .

وليست الطريقة إلا العمل بالإسلام على قدم الجد والصبر، وأركانها هى : الذكر، والبعد عن النـاس قـدر الإمكان، والصمت إلا عن خير، وعدم الإمعان في الشبع، وقيام شيء من الليل، وصـحبة الـشيخ المرشـد الكامل، جسداً وروحاً، وإن افترقت الأبدان فالصحبة الروحية قائمة ..

ضرورة صحبة المرشد .

صحبة المرشد الكامل – وهو أندر من الكبريت الأحمر في هذا الزمان – مـصححة للتـصورات والأعـمال، ومطهرة للقلب من الرعونات والأوضار، وملحقة للقاصر بالكامل، حتى يدرج في دائرة الولاية ..

إن السير بدون مرشد عالم، قد لا يفضي إلى الغاية المرجوة، فلابد منه، وكما لا يكـون المـرء طبيبـاً بمطالعـة الكتب فقط، دون أن يدخل دور الطب الرسمية، ثم بعد النجاح في الامتحان، يعمل في المشافي تحـت نظـر الأطباء، كما لا يكون الطبيب طبيباً إلا بهذا، لا يكون السير إلى الله تعالى مضمون النتائج، إلا بـصحبة عـالم

تقي نقي ورع، قد تربى بصحبة غيره . وهكذا إلى أن ينتهي الأمر إلى السيد الأعظم، حضرة سيدنا رسول الله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم . .

تعريف المرشد الكامل :

والمرشد الكامل، هو العالم العامل، ذو الحال الصالحة القوية، الذي إذا توجه بالدعاء إلى مريده ، نقله من حال الى حال بإذن الله ، ورقى به من مقام إلى مقام بإذن الله ، مع الاستعانة بالصبر والصلاة والذكر والفكر، والمجاهدة والمكابدة ..

شروط المرشد :

١- الإجازة بالإرشاد : وهذا المرشد، شرطه أن يكون تربى على يد مرشد مثله، حتى نضج علماً وحالاً وكمالاً وقوة إفاضة، فأجازه بالإرشاد، وهكذا حتى تتصل الطريق بإجازة شيخ عن شيخ إلى حضرة سيدنا رسول الله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم .

ولا بد لهذا المرشد، من أن يكون قد اجتاز العقبات، وتخلص من العيوب عيباً فعيباً، وارتقى مقاماً فمقاماً، حتى قعد مقعد الكمال، فهو بصير بما يعتري السالك وله من قوة توجهه القلبي ما يدرأ به عنه الأخطار إن شاء الله تبارك وتعالى . من ظفر بهذا المرشد، فليشد يده عليه، وليكن له سامعاً مطيعاً، فإنه الطبيب النفسي الذي تجب الرحلة إليه، والجلوس بين يديه . وآية معرفته الاستقامة على الكتاب والسنة فإن رأيت منه خلاف ذلك ففر منه فرارك من الأسد .

٢- العلم الواسع والعمل بالعلم : وأن يكون عالماً واسع العلم، لئلا يميل في السير إلى غير الاستقامة، فيميل المريد بميله، فيكون ضالا مضلاً، ومن كان كذلك، فهو بعيد عن الإرشاد كل البعد . والعلم الدينى يعم علم العقائد، وعلم الأحكام في العبادات والمعاملات، وعلم أحوال القلب وأمراضه المعنوية، والسبيل إلى تخليصه منها بمعالجته بالإضافة الروحية الصحيحة والتوجه القلبي القوي . ويشترط مع علمه الجم الغزير، أن يكون عاملاً به، فإن القدوة بالعامل أكثر منها بالعالم عند الجماهير،

وعند المبتدئين من المريدين أيضاً، وليكن عمله متجلياً طبق الشريعة، فلا يـأذن للحـال التـي تغـشاه ومريديه بأن تتأمر عليه وعليهم إن كانت مخالفة لقواعد الشريعة، أو لركائز الأعمال .

٣- الترفع عن مال المريد : ويتأكد عليه الترفع عن مال المريد، فإن أكل الدنيا بالـدين حـرام، إلا إذا كـان إهداء عن طيب نفس، وخلوص نية ، وبعد عن الاغترار . فإن رأيت شيخاً على خـلاف ذلـك فهـذا شيخ الدرهم والدينار .

٤- المرشد ليس معصوماً : ومع كل هذا، فالمرشد ليس معصوماً، لأن العصمة لا تكون لغـير الأنبيـاء علـيهم الصلاة والسلام، ومن هنا تكون صحبة الشيخ المرشد شاقة، لمن لم يرزق الاستـسلام لـه، وقـد قـص الله تعالى علينا من نبأ موسى والخضر على نبينا وعليهما الصلاة والسلام، ما فيه إشارة إلى هذا .

وليكن على بال المريد أن المرشد ليس نبياً معصوماً، فقد يجري عليه ما يجري على غيره من القضاء والقدر، لكنه سريع الأوبة، وشيك التوبة، وإنها لتغسل الحوبة .

وقد وقع بعض الشيوخ فيما صورته المخالفة، وكان ذلك امتحاناً منه لمريديه، فتغير بعضهم وثبـت غـيره، فقال للذى ثبت : لم لم تتغير كما تغير أصحابك ؟ فقال: ما صحبتك على أنـك معـصوم، ولكـن صـحبتك على أنك أعرف بطريق الله منى ..

٥- الإخلاص : ولقد لخص السيد الكبير الشيخ أحمد الرفاعى- رحمه الله تعالى- أهـم صـفات الـشيخ المرشـد بقوله : ((كم طيرت طقطقة النعال حول الرجال من رأس ! وكم أذهبت مـن ديـن ! والرجـل مـن جمـع الناس على الله لا على نفسه، وجذبهم إلى الله لا إلى نفسه، وبقي قلبه عنهم بمعزل، وهو ذاك الفارس البطل)) أهـ .

فقد أوضح الشيخ أمراً مهماً من الموازين التي نقيّم بها الشيخ ، ومنها نهيه لمريديه عن الإفراط فيه ، وتبجيله بما ليس فيه .

الأحـــوال

الأحوال من ثمرات الاستغراق في ذكر الله سبحانه وتعالى ، يخلقها الله سبحانه وتعالى في قلوب الذاكرين ، وسميت أحوالاً لأنها تتحول ولاتدوم ، وقد تسمى وجداً لوجودها في القلب ، وإذا قويت قد تفيض عن القلب ، فتظهر على الجوارح حركات اضطرارية أوبكاءً أو صراخا . وأكثر ماتظهر على جوارح المبتدئين ، أما المتمكنون فإنهم يصرعون أحوالهم ويمنعونها من الظهور .

قال الكلاباذي في "التعرف" : التواجد ظهور مايجده في باطنه على ظاهره ، ومن قوي تمكن فسكن . قال الله تعالى : (تقشعر منه جلود الذين يخشون ربهم ، ثم تلين جلودهم وقلوبهم إلى ذكر الله)(١).

فالتصوف حال أكثر منه قالا ، وإن من سلك سبيل القوم بصدق ذاق ما ذاقوه ، إن شاء الله تعالى له ذالك .ولايظهر أصحاب الأحوال أحوالهم ،إلا عند الاضطرار الشديد ، الذي يفقد معه التماسك والتثبت ، على أن الإكثار من الصلاة والسلام على حضرة سيدنا رسول الله ﷺ له أثره في تهدئة الحال.

صاحب الحال لايقلد أثناء غلبة الحال عليه .

هذا ولابد من التنبيه إلى أن بعض المتصوفة قد تغلبهم أحوالهم ، ويصدر عنهم أثناء ذلك ما يخالف الشرع ، فلا يجوز تقليدهم في هذا الذي يصدر عنهم في حالة الغلبة ، كما نبه على هذا كبار العلماء رحمهم الله تعالى .

قال الإمام الرباني السرهندي – رحمه الله تعالى – : "علامة الوصول إلى حقيقة اليقين ، مطابقه علومه ومعارفه لعلوم الشريعة ومعارفها ، ومادامت المخالفة موجودة ، ولو بأدنى شعرة ؛ فذلك دليل عدم الوصول ، وكل خلاف واقع من كافة مشايخ الطرق للشريعة ، فهو مبني على سكر الوقت ، وهو لايكون إلا في أثناء الطريق ، والمنتهون إلى النهاية كلهم في الصحو ، والوقت مغلوب لهم ، والحال والمقام تابع لكمالهم ، فتحقق أن مخالفة الشريعة علامة على عدم الوصول إلى الحقيقة ...))

الأحوال والأعمال :

ولايظن إنسان أن الأحوال الطيبة ثمرة الذكر فقط ، بل لابد من الأعمال التي أمر بها الشرع وتعبدنا الله بها ، قال الكلاباذي – رحمه الله تعالى – : "اعلم أن علوم الصوفية علوم أحوال، والأحوال مواريث الأعمال ،

---

(١) [الزمر : ٢٣].

ولايرث الأحوال إلا من صحح الأعمال ، وأول تصحيح الأعمال معرفة علومها ؛ وهي علوم الأحكام الشرعية." فالوجد الشرعي ثمرة الاتباع للكتاب والسنة.

وقال الحسن البصري – رحمه الله تعالى – : "لايغرنك قول من يقول : المرء مع من أحب ، فإنك : لن تلحق الأبرار إلا بأعمالهم ، فإن اليهود والنصارى يحبون أنبياءهم وليسوا معهم" .

الشطح والتحذير منه .

وقد يغتر بعض المبتدئين بحاله ، وتغلب عليه نفسه ، فيتلفظ بألفاظ مخالفة للشرع ، وقد أطلقوا على هذه الحاله اسم (الشطح) وحذروا منه ومن الاقوال الناتجة عنها أشد تحذير ، ولقد دخل إلى التصوف عن هذا الطريق دخائل كثيرة . والعلماء الصالحون يحذرون منها ، وينبهون عليها ، وينصحون المبتدئين بألا يقرؤوا كتب القوم حتى لا يقعوا على أمثالها . وإن كثيرا منها مدسوس عليهم ، وقد يتكلمون بكلمات لا يفهم حقيقة معناها إلا من كان مثلهم وبلغ رتبتهم . فيجب الامتناع من مطالعة تلك الكتب حرصا على سلامة الاعتقاد ، وإبقاء على حسن الظن بالقوم رحمهم الله تعالى .

والاشتغال بالتفسير والحديث والفقه ، أجدى علينا وعلى الأمة من الاشتغال بهذه الدقائق ، التي قل أن يخرج المشتغل بها سليما ، إن كان من المبتدئين ، وقد قال العلماء : "طعام الكبار يضر الصغار" .

ومن وصايا مولانا خالد النقشبندي – رحمه الله تعالى – : "أما بعد : فأوصيكم ، وآمركم بالتأكيد الأكيد بشدة التمسك بالسنة السنية ، والإعراض عن الرسوم الجاهلية ، والبدع الردية ، وعدم الاغترار بالشطحات الصوفية .."[١] .

ويقول الدكتور البوطي في كتابه (هذا والدي)[٢].

هذه المسألة هي المعضلة الكبرى ، التي جعلت فئة من الناس تنظر إلى التصوف من حيث هو – أي جملة وتفصيلاً – على أنه هرطقة وزندقة وشرود عن ضوابط القرآن والسنة ، وهي التي جعلت فئة أخرى تفهم الأمور على ظواهرها ، وتتقبل العبارات الموهمة بل الباطلة على أساس الثقة بقائليها أو بمن نسبت إليهم .

---

(١) من كتاب "العلامة المجاهد الشيخ محمد الحامد" للشيخ عبد الحميد طهماز .

(٢) ص ١٠٨-١١١.

وكلا الفريقين شارد في قراره هذا عن الحق ، متورط في حيف وظلم كبيرين .

أما الأول منهما فمتورط في ظلم التصوف ، والجنوح عن الحق في حكمه الجائر عليه ، وأما الثاني فمتورط في ظلم الشريعة والدين ، إذ مضى يحملها أوزار كلمات وعبارات ما هي منها في شيء ... على أن كثيرين من هذا الفريق الثاني لا ينتهون من تردادهم لهذه العبارات إلى أي فهم لمعانيها . وإنما يبتلعونها ابتلاعاً بسائق من الثقة المجردة كما هي .. تماماً كما يزدرد أحدهم لقمة من طعام دون أي تذوق ولا مضغ .

فنحن نستنكر العبارات التي لا تتفق معانيها المتبادرة منها ، مع القرآن والسنة وما يجب الإيمان به من مبادئ العقيدة الإسلامية ولا نرى تردادها وقراءتها .

فالشطحات التي تقرأها في الفتوحات المكية لابن عربي[1] ، والتي تخالف في ظاهر مدلولها أصول العقيدة ومبادئها ، فإنه لا يجوز قراءتها فضلاً عن تبنيها والإيمان بها ، ولو على سبيل الإغماض والتسليم

ونقرر ما قرره من قبلُ الإمام ابن حجر الهيتمي في فتاويه الحديثية ، من حرمة قراءة الفتوحات، وما شابهه كفصوص الحكم .. لا اتهاماً للمؤلف ، ولكن سداً لذريعة التشويش أو الافتتان بظاهر ما تدل عليه تلك الشطحات من الكفريات .

وكذلك بقية الذين فاهوا أو نقل عنهم بعض الشطحات[2]، وقوله : سبحاني ما أجل شأني ، وكابن الفارض في بعض ما جاء على لسانه في تائيته الكبرى ، فإننا نناًى عن شطحاتهم هذه ونركن إلى الاستفادة من بقية شئونهم والاستشهاد ببقية كلماتهم وأقوالهم التي لا غبار عليها .

ومن قال ببعض تلك الشطحات فإنما قال ذلك في حالة فناء انتابته وعرضت له ، غاب فيها عن شهود ذاته ، فاستغرق في شهود الحق وحده . ففاه بتلك الكلمات وهو تحت سلطان ذلك الفناء عن الذات ، وفي غيبوبة عن قرار العقل ويقينه . ولذا فإن كلاً منهم كان يعود عن تلك الشطحات ويبرأ منها ويؤكد نقيضها ، بمجرد أن تلك الحال[3].

---

(١) وقد اتفق كل من ترجم للشيخ ابن عربي ، أنه قد دس عليه في كتابه الفتوحات وغيره ، دس عليه الباطنيون ماشاؤوا أن يدسوا . أكد ذلك ابن المقري في نفح الطيب ، وابن العماد في شذرات الذهب ، والشعراني في اليواقيت والجواهر . وحاجي خليفة في كشف الظنون ، وهذا من أهم مايقتضي الإعراض عن الفتوحات ونحوه . ورحم ا من قال : خذ ماصفا ودع ماكدر.

(٢) كأبي يزيد البسطامي الذي نقل عنه قوله : مافي الجبة إلا ا

(٣) ذكر ابن تيمية قريبا من هذا الكلام في تأويل شطحات أبي يزيد البسطامي الذي كان يمدحه ويقدسه . انظر مجموع الفتاوى: ٣٣٧/١٠ وينظر كتاب السلفية للبوطي : ص ٢٠٤ فما بعد .

الكرامة والولاية

الكرامـــة: أمر خارق للعادة، غير مقرونـة بـدعوى النبـوة، ولا هـي مقدمـة لهـا، ولا يـشترط فيهـا التحـدي كالمعجزة.

وهي عبارة عن إكرام الله لولي من أوليائه الصالحين، من أتباع الرسل الملتزمين بأحكام الشرع، بما يظهره الله على يديه من أمور .

ولا يشترط فيها دائماً أن تكون خارقة لنواميس الكون، أو خارجة عما يألفه الناس، وليس لهـا صـورة أو كيفيـة معينة.

وهي ثابتة بأصل الكتاب والسنة، ومنها على سبيل المثال قوله تعالى في قصة مريم :

(كلَّما دخل عليها زكريا المحراب وجد عندها رزقاً، قال : أنىَّ لك هذا، قالت : هو من عند الله، إنَّ الله يرزق من يشاء بغير حساب) . وقصة أصحاب الكهف ، وغيرها ممّا ورد في كتـاب الله، أو في سـنة رسـوله ﷺ أو في سـير الصحابة رضوان الله عليهم .

وكرامات الصحابة كثيرة، مثل ما كان لأسيد بن حضير، ورجل من الأنصار، عندما خرجا من عند رسول الله ﷺ في ليلة مظلمة، وفي يد كل منهما عصاً، فأضاء لهما عصا أحدهما، حتى مشيا في ضوئها، فلمّا افترقـا، أضـاءت عصا الآخر، فمشى كل منهما في ضوء عصاه) [1].

يقول ابن تيمية : (ومن أصول أهل السنة والجماعة، التصديق بكرامات الأولياء، وما يجري الله على أيديهم مـن خوارق العادات، في أنواع العلوم والمكاشفات ، وأنواع القدرة والتأثيرات. كالمأثور عن سالف الأمم في سورة الكهف وغيرها، وعن صدر هذه الأمة من الصحابة والتابعين وسائر قرون الأمة ، وهي موجودة فيهـا إلى يـوم القيامة)[2] .

ومفهوم الصّوفَّية للكرامة لا يختلف عن هذا المعنى .

---

(١) رواه البخاري في كتاب مناقب الأمصار ٧ : ١٢٤ - ١٢٥ .

(٢) التعرف لمذهب أهل التصوف ص ٨٧ - ٨٨

يقول الكلاباذي : (أجمعوا على إثبات كرامات الأولياء، وإن كانت تدخل في باب المعجزات كالمشي على الماء، أو كلام البهائم، وطي الأرض، وظهور الشيء في غير موضعه ووقته) [1].

ويقول : (كرامة الولي بإجابة دعوة، وتمام حال، وقوة على فعل، وكفاية مؤنة يقوم لهم الحق بها، وهي ممّا تخرج عن العادات) . [1]

ويقول القشيري : (واعلم أنَّ من أجلّ الكرامات التي تكون للأولياء دوام التوفيق للطاعات، والعصمة عن المعاصي والمخالفات) . [2]

ويقول سهل بن عبد الله حين سئل عن الكرامات : (وما الآيات وما الكرامات شيء تنقضي لوقتها، ولكن أكبر الكرامات أن تبدل خلقاً مذموماً من أخلاق نفسك بخلق محمود). [3]

والولي صاحب الكرامة لا يستأنس بهذه الكرامة ، بل يتضاعف خوفه وخشيته من الله، فيزداد له تذلّلاً، وخضوعاً، وطاعة، وشكراً له، مخافة أن تكون من قبيل الاستدراج . وهذا ما عناه الكلابادي في قوله:(وأمّا الأولياء فإنَّهم إذا أظهر لهم من كرامات الله شيء ازدادوا لله تذللاً وخضوعاً وخشيةً واستكانةً وإزراءً لنفوسهم وإيجاباً لحق الله عليهم، فيكون ذلك زيادة لهم في أمورهم، وقوة على مجاهداتهم، وشكراً لله تعالى على ما أعطاهم) . [4]

ومن خلال مفهوم الصّوفَّية لمعنى الكرامة، فهم يقسمونها إلى قسمين : كرامة حسية ، وكرامة معنوية .

والكرامة الحسية : هي المشتهرة بين عامة الناس ، والمتمثلة في خرق العوائد في الأمور المادية .

أمّا الكرامة المعنوية : فهي لأهل الخصوص من عباد الله، والمتمثلة في التوفيق إلى حفظ آداب الشريعة، والاستقامة مع الله ظاهراً وباطناً، والتزام مكارم الأخلاق وغيرها من الأمور المعنوية . [5]

---

(١) التعرف لمذهب أهل التصوف ص ٩٠ .

(٢) الرسالة القشيرية ص ١٦٠ .

(٣) اللمع ، للطوسي ص ٤٠٠.

(٤) التعرف لمذهب أهل التصوف ص ٨٩ .

(٥) نظرية الاتصال عند الصوفية ص ٢٠٢ .

والكرامة المعنوية هي الأفضل عند أهل الطريق ، وذلك لأنها لايداخلها استدراج ولا مكر ، ولا يشاركهم في صورتها فاسق ولا عاص . بخلاف الكرامات الحسية المعروفة لدى العامة ، والتي قد يلتبس بها المكر والاستدراج .

ويذهب معظم الصّوفَّية إلى استحباب ستر الكرامة، إلاَّ إذا كانت لغرض صحيح، كنصرة دين الله، أو تحقيق مصلحة، وغير ذلك . أمّا إظهارها دون سبب موجب فهو مذموم عندهم ، لأنَّ فيها شيئاً من حظ النفس والعجب والمفاخرة.

يقول الشعراني : (إن الكرامة عند أكابر الرجال معدودة من جملة رعونات النفس، إلاَّ إن كانت لنصرة دين، أو جلب مصلحة، لأنَّ الله تعالى هو الفاعل عندهم لا هم)(١).

وحتى لا تكون الكرامة مشاعاً لكل دعي، فقد ذكر الصّوفَّية لها شروطاً خاصة تميزها عن غيرها من صور التحايل والخداع .

وأهم شروطها : أن تظهر على يد المتصف بالاستقامة واتباع التكاليف الشرعية، المقبل على الطاعات بصدق نية، وإخلاص قلب، وزهد في متاع الدنيا.

يقول القشيري : (ولابد أن تكون هذه الكرامة فعلاً ناقضاً للعادة في أيام التكليف ، ظاهراً على موصوف بالولاية) (٢).

ويقول الشعراني : (الكرامة لا تقع إلاَّ على يد من بالغ في الاتباع للشريعة حتى بلغ الغاية)(٣).

وتبقى الكرامة أولاً وأخيراً منحة إلهية وهبة رحمانَّيةُ، لا تكتسب بكثرة الطاعات، والاجتهاد في العبادات، بل الفضل لله يؤتيه من يشاء(٤).

---

(١) اليواقيت والجواهر ٢ / ١٠٤

(٢) الرسالة القشيرية ١٥٨ .

(٣) اليواقيت والجواهر ٢/ ١٠٢

(٤) نظرية الاتصال عند الصوفية ص ٢٠٦-٢٠٧ .

الإلهام والكشف بين الإفراط والتفريط

الإلهام هل هو حُجَّة في الأحكام الشرعية ؟

هذا موضوع[1] يهتم به علماء العقيدة والتوحيد ، لأنه يتصل بطرائق العلم التي يتوصل بها إلى المعرفة بالحقائق الكبرى من الألوهية والنبوة والمعاد .

وكذلك يهتم به علماء الأصول ، لأنه يتعلق بتحديد مصادر المعرفة الشرعية ، وهل هناك مصدر لها غير الكتاب والسنة ، وما دلا عليه من الاجماع والقياس ؟

ويهتم به أيضاً علماء التصوف ، بل هو أخص شيء بهم ، وهم أصحابه ، وهم الذين يُنقل عنهم أنهم يعتمدونه مصدراً من مصادر المعرفة.

ولذا كان تحرير هذا الأمر من المهمات العلمية ، حتى لاتضيع الحقيقة بين طرفي النفي والغُلاة في الإثبات ، كأكثر الأمور في عالم الفكر ، يفُرِط ويُفَرِّط فيها آخرون .

وكثيراً مايعبر الصوفية عن الإلهام أو الكشف بإلقاء معنى أو فكرة أو خبر أو حقيقة ، في النفس أو القلب بطريق الفيض ، بمعنى أن يخلق الله فيه علماً ضرورياً لا يملك دفعه . أي ليس بطريق التعلم والاكتساب المعهود ، بل هو يُفاض على النفس فيضاً ، بغير اختيارها ولا إرادتها ، سواء سعت إليه سعياً عن طريق الرياضة الروحية ، وتفريغ القلب من كل شيء ، أم أُفيض ذلك عليها كرامة من الله لها ، وخرقاً للعوائد من أجلها ، وإن لم تتعمد السعي إليه .

ومن شأن هذا العلم الضروري – إذا أُلقي في القلب – أن يُحرك إلى العمل ، ويبعث على الفعل أو الترك ، فهو نتيجة وثمرة له .

---

(١) بتصرف واختصار من كتاب "موقف الإسلام من الإلهام والكشف" للدكتور القرضاوي ص ١٤ – ١١١ .

مواقف العلماء من الإلهام :

واذا عرفنا حقيقة الإلهام ، بقي علينا أن نعرف مواقف أهل العلم المسلمين من الإلهام ، ومدى الثقة بما يأتي عن طريقه من معارف وأفكار . ونستطيع أن نقسم هذه المواقف إلى ثلاثة :

١- موقف النفاة الرافضين للإلهام .

٢- موقف المثبتين القائلين بحجية الإلهام .

٣- موقف المتوسطين بين الفريقين .

موقف النفاة المنكرين للإلهام :

ومن الإنصاف أن نقول أنه لا يوجد أحد - من العلماء المعتبرين لدى الأمة - من ينفي الإلهام نفياً كلياً وينكره إنكاراً مطلقاً .

بل النفي منصب على الاعتداد به أصلاً ودليلاً شرعياً ، واعتباره حجة مستقلة ، بحيث يُستدل به على الحق والصواب في باب المعارف والاعتقادات، وعلى مشروعية الفعل أو الترك في باب التعبدات والمعاملات.

ويبدو أن موقف النفاة الرافضين للإلهام هنا ، كان رد فعل لموقف المتصوفة الذين غلوا في إثبات الإلهام ، وزعموا أن له حجية ثابتة ، ومصدرية مستقلة للأحكام الشرعية ، فنفي ذلك العلماء المتمسكون بالكتاب والسُّنَّة ، وأنكروه .

المغالون في إثبات الإلهام وحجيته واعتباره :

أما الفئة الثانية فهي التي غلت في إثبات الإلهام ، وفيما له من حجية شرعية : علمية وعملية ، بحيث يُستدل به على سلامة الاعتقاد ، وسداد القول ، وصحة العمل ، واستقامة المنهج .

وهؤلاء هم المنحرفون من دعاة التصوف أو أدعيائه على الحقيقة ، وليس كل الصوفية معهم في ذلك، فإن الصوفية الأوائل ملتزمون بالكتاب والسنة ، وإنما هؤلاء قوم لم يتحصنوا بمحكمات الشرع ، فمالت بهم رياح البدع القولية والعملية يميناً وشمالاً ، فاعتمدوا على المتشابهات ، وأعرضوا عن المحكمات ، وهذا أصل الزيغ والغلو .

الإلهام ليس بحُجَّة شرعية :

وهؤلاء قد رد عليهم الأصوليون بأن الإلهام ليس بحُجَّة ، سواء في باب المعارف والاعتقادات ، أم باب الأعمال والتعبدات ، وتظاهر على ذلك علماء أصول الدين وعلماء أصول الفقه ، وردوا على من زعم أنه حُجَّة ودليل شرعي ، وأبطلوا كل ما استدلوا به .

أما في باب المعرفة والاعتقاد فيذكر "النسفي" في "عقائده" المشهورة والمعتمدة لدى المتأخرين من الأشاعرة والماتريدية ، وهي من الكتب التي كانت – ولا تزال – تدرس بالأزهر : أن أسباب العلم للخلق ثلاثة : الحواس السليمة ، والعقل ، والخبر الصادق ، ومنه خبر الرسول المؤيَّد بالمعجزة.

وبعد أن حصر أسباب العلم اليقيني في هذه الثلاثة قال : "والإلهام ليس من أسباب المعرفة بصحة الشيء عند أهل الحق"[1]

(١) العقائد النسفية مع شرحها ص ٤١ .

ضلالة ازدراء العلم الشرعي

ومن ضلالات المعظمين للكشف والإلهام ، والقائلين بحجيته ، المؤمنين بقدسيته ، ازدراؤهم للعلم الشرعي : علم القرآن والسنة والفقه والأصول ، وما تفرع عنها ، وتحقير أولئك الذين يذيبون أعمارهم في طلبه وتحصيله ، والتعمق فيه ، مستغنين بكشفهم المزعوم عن السعي لتلقي العلم من أهله ، جاهلين أو متجاهلين : أن الأنبياء لم يُورِثوا ديناراً ولا درهماً ، إنما ورَثوا أُممهم العلم ، وأن "طلب العلم فريضة على كل مسلم" ، كما نطق بذلك حديث المعصوم ، وكما أجمعت عليه الأمة .

والعلم المفروض طلبه هنا هو علم النبوة ، الذي به يُعرف الله سبحانه ، ويعرف الطريق إليه ، ويُعرف مايحبه وما يكرهه ، ولا طريق لذلك إلا معرفة الشريعة التي جاء بها سيدنا محمد ﷺ . وبها يعرف المسلم دينه ويصحح عقيدته وعبادته ويضبط سلوكه .

فالعلم بشرع الله تعالى ، كما نزل به وحيه إلى رسوله ﷺ في كتابه وسُنته ، هو الدليل المعصوم الذي لايخطىء ولا ينسى .

الصوفية الأوَّلون ملتزمون باتباع الشريعة :

ولا غرو أن وجدنا من سادات الصوفية مّن أنكر على المنحرفين هذه الدعاوى العريضة التي زعموا فيها الاستغناء عن علم الكتاب والسُنَّة .

ونذكر هنا بعض ما نقله ابن القيم في ((مدارج السالكين)) عن المعتدلين من أكابر شيوخهم:

((قال سيد الطائفة وشيخهم الجنيد بن محمد رحمه اللهَّ : الطرق كلها مسدودة على الخلق إلا على مَن اقتفى آثار الرسول ﷺ .

وقال : مَن لم يحفظ القرآن، ويكتب الحديث، لا يُقتدى به في هذا الأمر، لأن علمنا مُقيَّد بالكتاب والسنَّة.

وقال : مذهبنا هذا مُقيَّد بأُصول الكتاب والسُنَّة .

وقال أبو حفص – رحمه اللهَّ – : مَن لم يزن أفعاله وأحواله في كل وقت بالكتاب والسُنَّة ، ولم يتهم خواطره ، فلا يعُد في ديوان الرجال .

العلم اللدُّني :

أما العلم اللدُنّى الذي طنطن به بعضهم ، وزعم الاستغناء به عن العلم الكسبي ، فقد قال فيه ابن القيم في شرح ما جاء في كلام الهروي عنه في ((منازل السائرين)) .

((العلم اللدُنّي)) هو العلم الذي يقذفه اللهَّ في القلب بلا سبب من العبد ، ولا استدلال ، ولهذا سمي لدُنّيا. قال تعالى : (عَلَّمَ الإنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ) ، ولكن هذا العلم أخص من غيره ، ولذلك أضافه إليه سبحانه ، كبيته وناقته وبلده وعبده ، ونحو ذلك . فتضمحل العلوم المستندة إلى الأدلة والشواهد في العلم اللدُنّى، الحاصل بلا سبب ولا استدلال ، هذا مضمون كلامه (يعنى الهروى صاحب ((المنازل)).

قال ابن القيم : ((ونحن نقول : إن العلم الحاصل بالشواهد والأدلة ، هو العلم الحقيقي ، وأما ما يدُعَّى حصوله بغير شاهد ولا دليل ، فلا وثوق به (وليس بعلم) . نعم قد يقوى العلم الحاصل بالشواهد ويتزايد ، بحيث يصير المعلوم كالمشهود ، والغائب كالمعايَن ، وعلم اليقين كعين اليقين ، فيكون الأمر شعوراً أولاً ، ثم تجويزاً ، ثم ظناً ، ثم علماً ، ثم معرفة ، ثم علم يقين ، ثم حق يقين ، ثم عَيْن يقين ، ثم تضمحل كل مرتبة في التي فوقها ، بحيث يصير الحكم لها دونها ، فهذا حق .

فالعلم اللدُنَّي : ما قام الدليل الصحيح عليه ، أنه جاء من عند الله على لسان رسله ، وما عداه فلدَنَّي من لّدُن نفس الإنسان ، منه بدأ وإليه يعود .

وقد انبثق سد العلم اللدُنَّي ، ورخص سعره ، حتى ادَّعت كل طائفة أن علمهم لدُنَّي . وصار مَن تكلم في حقائق الإيمان والسلوك وباب الأسماء والصفات بما يسنح له ، ويُلقيه شيطانه في قلبه ، يزعم أنَّ علمه لدُنَّي !

التفرقة بين الشريعة والحقيقة :

إن اعتداد كثير من الصوفية بأذواقهم وخواطر نفوسهم ، وما يعرض لهم من إلهام وكشف ، وادعاء بعضهم العصمة لهذه الإلهامات والخواطر ، قد انتهى بطائفة منهم إلى الوقوع فى ضلالات عدة .

فمنها : تفرقتهم بين ((الشريعة)) التي يجئ بها النص ، و ((الحقيقة)) التي يجئ بها الكشف ، واعتبارهم الأولى من نصيب العوام ، والثانية من حظ الخواص ، ومما يقولونه فى ذلك : مَن نظر إلى الخلق بعين الشريعة مقتهم ، ومَن نظر إليهم بعين الحقيقة عذرهم !

ويستدلون على هذه التفرقة بقصة موسى والخضر ، التي ذكرها الله فى سورة الكهف . فقد كان موسى ينظر بعين الشريعة فأنكر خرق السفينة ، وقتل الغلام بغير جناية ، وإقامة الجدار لقوم لا يستحقون إكراماً ولا معونة .

وكان الخضر ينظر بعين الحقيقة ، ولهذا بيَّن لموسى ما وراء كل فعلة من هذه الفعلات من أسرار وغيوب ، فسلَّم موسى للخضر ، لأن موسى لم يكن معه إلا علم الظاهر ، علم الشريعة، والخضر معه علم الباطن ، وهو علم الحقيقة .

والعلم الذي عند الخضر لم يأت نتيجة تعلم ولا اكتساب ، إنما هو علم وهبي من لَدُن الله مباشرة وبلا واسطة ، ويسمونه ((العلم اللدُنّي)) أخذاً من قوله تعالى : {وعَلَّمْناهُ من لَّدنُاَّ علْما}

ومن هنا جاء عن بعض المتصوفة احتقارهم لعلم الشرع ، الذي يُعرف من النصوص ، ويُطلب من العلماء ، ويُروى بالأسانيد ، ويسمونه ((علم الورق)) .

وإنما يعنيهم علم ((الباطن)) أو ((الحقيقة)) أو ((العلم اللدُني)) كما يسمونه ، علم الخضر لا علم موسى ، علم ((أصحاب الأذواق)) لا علم ((أصحاب الأوراق)) . علم الصوفية لا علم المحدَّثين والفقهاء بل قال بعضهم : إن العلم حجاب بين صاحبه وبين اللهَّ !!

ولا ريب أن هذا جهل مبين ، وغرور قبيح ، وشرود عن الصراط المستقيم ، الذي سار عليه رسول اللهَّ – صلى اللهَّ عليه وسلم – وأصحابه الكرام ، ومَن تبعهم بإحسان ، بل سار عليه سادة الصوفية الأوائل أنفسهم .

الحالات والمشاعر الوجدانية :

ومن ذلك حالات ومشاعر وجدانية ، قد تزج بأحدهم فيما يسمونه الفناء ؛ وقد يمتد به هذا الحال أو يطبق عليه ويمتلك مشاعره ، فينطق بكلمات منافية في ظاهرها لمبادىء العقيدة وقواعد الشرع ، فيثور من ذلك جدل شديد بين من يدافع عن هذه المشاعر وتلك التعابير والكلمات ، ومن ينكرها وينسب أصحابها إلى الزندقة أو الحلول .

أما الفناء ، فهي حالة من الاستغراق تعتري أصحابها ، تجعلهم يذهلون بالمكون جل جلاله عن الأكوان التي من حولهم ؛ مع يقينهم العقلي بوجودها ، ولكنهم ذاهلون عن يقينهم العقلي هذا ؛ وآية ذلك أنهم أثناء مرورهم بهذا الفناء ، يكونون في حالة جذب تمنعهم من التعامل مع الناس في شؤونهم المعيشية على نظام أو نسق سوي . وقد كان هذا هو شأن الشيخ أحمد البدوي (٥٩٦ - ٦٧٥هـ) مع الناس، فيما روى المترجمون له، معظم حياته، ومنهم من كانت تعتريهم هذه الحالة إلى حين، ثم يعودون إلى الصحو والتعامل الطبيعي مع الحياة .

وحدة الوجود ووحدة الشهود :

يقول الدكتور البوطي أيضاً في كتابه : "هذا والدي" ص ١١٢ - ١٢٠ :

" أما وحدة الوجود بمعناها الفلسفي فإنها باطل من القول والاعتقاد ، يكفر معتقدها . وأما وحدة الشهود ، وهي شهود صفات الخالق في مكوناته ومخلوقاته ، فإنها من أهم نتائج الإيمان وثمراته .

وعقيدة وحدة الوجود بمعناها الفلسفي ، هي اعتقاد أن وجود الخالق والمخلوق وجود واحد ، ومن ثم فحيثما وجد الخالق لابد أن يوجد المخلوق كجزء من وجوده ، أي الخالق عز وجل . إذ لو لم نقل بذلك لكان وجود الخالق وحده وجوداً ناقصاً . لأن مايكمل بغيره يصبح ناقصاً عند افتراض عدم وجود ذلك الغير .. وهذا الاعتقاد يؤدي إلى ضرورة القول بقدم المخلوقات ، إذ إن وجود الله لابد أن يكون مساوياً في الوقت ذاته لوجودها ، كما يؤدي إلى القول بالحلول .

ولافرق في بطلان هذا الاعتقاد وكفره بين أن يصاغ التعبير عنه بهذه الطريقة أو أن يصاغ التعبير عنه بطريقة القول بنظرية الفيض ، أي القول بأن وجود الله كان لابد أن يفيض على ما وراء ذاته ، المتمثل فيما يسمى بالأغيار أو المكونات .

وليس اعتقاد الحلول ، أي حلول الذات الإلهية في عين مخلوقاته ، إلا لازماً من مستلزمات عقيدة وحدة الوجود بالمعنى الدقيق الذي ذكرناه .

وإنما الاعتقاد المنطقي السليم هو أن نعلم أن الوجود الحق ، أي الوجود الذاتي المستقل بنفسه ، إنما هو وجود الله وحده . ثم إن الله خلق بمحض تدبيره وإرادته وقدرته وجود المكونات التي أبدعها ، كلاً في ميقاته الذي حدده له . فالوجود الأزلي القديم هو وجود الله لا غير ، إذ لم يكن في الأزل ما يسمى غيراً .. واستمر الأمر على هذا المنوال ما شاء الله أن يستمر ، ثم إن قدرة الله تعلقت بانجاز خلق كل ما قد قضى الله أن يخلقه ، فدخلت تلك المخلوقات عندئذ في نطاق ما يسمى بالوجود .

ومعنى وحدة الشهود ، أنها حال تلاحق شعور الإنسان ، وليس قراراً يصدر من عقله . فهو على الرغم من يقينه العقلي الجازم بوجود هذه المكونات وحدوثها ومخلوقيتها ، لا يرى فيها أو منها إلا مرايا تتجلى فيها صفات الخالق المنبثقة عن أسمائه الحسنى . فهو لا يرى في كثرة المكونات التي يوقن بها إلا وحدة الخالق التي تهيمن على مشاعره لغيبته عن شعوره.

القول بسقوط التكليف

من أخطر الانحرافات التي وقعت لبعض أدعياء الصوفية ، والتي تخرج صاحبها من دائرة الإسلام القول بسقوط التكليف .

ذلك أن بعضهم وقع في الإباحية ، وطووا بساط الشرع ، ورفضوا الأحكام ، وسووا بين الحلال والحرام .. وهم فئات . (1)

ويقرر جمهور الصوفية أن التكاليف الشرعية لاتسقط عن المكلف بأي حال ، حتى ولو بلغ درجة الوصول . بل إن الوقوف عند حدود الشرع والتمسك بأحكامه ، هو المقياس الذي يحكم به على صدق الصوفي الواصل مهما ظهرت عليه من كرامات وأحوال . يقول أبو يزيد البسطامي : [لو نظرتم إلى رجل أعطي من الكرامات حتى ارتقى في الهواء فلا تغتروا به ، حتى تنظروا كيف تجدونه عند الأمر والنهي ، وحفظ الحدود ، وأداء الشريعة " (2)

ويتشددون في الأمر إلى درجة أنهم يعتبرون أن من أخل بفريضة أو ضيعها يوشك أن يضيع دينه ، ويسقط في مهاوي البدعة . وفي هذا يقول أبو محمد عبدالله بن منازل : (لم يضيع أحد فريضة من الفرائض إلا ابتلاه الله تعالى بتضييع السنن ، ولم يبل أحد بتضييع السنن إلا أوشك أن يبتلى بالبدع) . (3)

---

(1) الإحياء ٣/ ٤٠٥ .

(2) الرسالة القشيرية ١٤ .

(3) المصدر نفسه ٢٦ .

نحو قراءة منهجية للتراث الصوفي الإسلامي [1]

" تتواصل الحضارات الانسانية فى فكرها المتسلسل فى حلقات تطورها ، ويفيد اللاحق فيها من السابق ، لا تشد عن ذلك حضارة ، ولا يخرج على هذه القاعدة فكر ، لكن هذه الإفادة تتوقف على طريقة قراءة أهل الحضارة لتراثهم ، فكلما كانت القراءة وفق منهاج لا يغفل الحقائق ، ولا يسقط ظروف الحاضر على الماضي فيحكم عليه وفق هذه الظروف ، إلى غير ذلك من ضوابط المنهاج ، ودقة تطبيقه ، كانت إمكانية توظيف هذا التراث للحاضر أيسر وأخصب ، والفكر الصوفي المنبثق من التجربة الصوفية لدى المسلمين جزء من تراثنا الإسلامي ، وقد مر بمراحل منذ نشأته وحتى يوم الناس هذا ، اعتورته فيها ظروف وحكمته عوامل ، لكنه أدى دوراً يمكن للمسلم المعاصر أن يفيد منه وأن يوظفه فى إصلاح حاضره وتصور مستقبله ، لكن ذلك رهن بمنهاج القراءة لهذا التراث ، والهدف من الحكم عليه فى مرحلة ما ، أو عند مدرسة ما ، ونحو ذلك .

وقد قرئ التصوف الإسلامي من البعض وفق منهاج منضبط فكانت نتيجة القراءة حكما اختلف بشكل واضح عن حكم آخرين – وهم كثرة – قرأوا التراث الصوفي بعيون ورؤوس غير منهجية ، أو على الأقل في هذه النقطة ، وترتب على هذا انعدام الإفادة من هذا التراث مع خصوبته وثرائه ، ومناسبته لحل كثير من مشكلات المسلم المعاصر .

ولابد من أجل تحقيق الفائدة من هذا التراث أن نلتزم عند قراءته بهذه الحقائق والمسلمات ، وأذكر الآن أهم تلك الضوابط المنهجية في قراءة وفهم التراث الصوفي الإسلامي :

الحقيقة الأولى : الحاجة إلى تنمية الطاقة الروحية لدى الإنسان

لم يعد أمر وجود الجانب الروحي فى الإنسان موضع جدل ، بعد أن غدا حقيقة ثابتة تتلمسها فى حوار الفلسفة التي اهتمت بدراسة طبيعة الإنسان مقارنة بطبيعة الحيوان ، لتصل إلى أن الإنسان بصفاته يفوق حجمه الطبيعي الحسي .

وقد ترتب على وجود هذه الحقيقة أن اهتمت مدارس التربية بالجانب الروحي في الإنسان وطالبت بأن يأخذ حقه فى المناهج كما يعنى بالجانب العقلي والجانب الجسدي تماما بتمام .

(١) هذا البحث مستفاد من الدكتور أبو اليزيد العجمي الدمنهوري ، في مجلة الدراسات الإسلامية مع زيادة كثيرة وتصرف

الحقيقة الثانية : تصور الصوفية للشخصية المسلمة

من المقرر أن أخلاق الإسلام هي أساس بنائه بحيث إذا افتقرت أحكام الشريعة سواء فى ذلك الأحكام الاعتقادية أو الأحكام الفقهية إلى الأساس الخلقي كانت صورة لا روح فيها ، وهيكلا فارغا من المضمون .

ولأن التصوف الإسلامي منبثق من الإسلام فقد حمل هذه الصفة وصارت الأخلاق أبرز مضامينه

الحقيقة الثالثة : الدور التاريخي للتصوف الإسلامي

ومما ينبغي الوعي به حين نقرأ التصوف الإسلامي أن ندرك ما ذا قدم الصوفية لمجتمعاتهم عبر مراحل التاريخ . وكيف اكتسبوا مكانة مرموقة بين الناس ، والأمر منطقي وفق مقاييس أصحاب الدراسات الاجتماعية حيث يقررون أن مكانة أي طائفة فى مجتمعها إنما تتحدد بواسطة ما تقدمه وما تمتلكه من رموز الهيبة والتقدير .

الحقيقة الرابعة : أثر التصوف فى العلماء والمصلحين

ولعل أقدم تأثير للتصوف فى العلماء المحافظين الرواية التي تذكر أن الإمام أحمد بن حنبل ذهب مستخفيا ليسمع الحارث المحاسبي وهو بين أتباعه ، وبعد أن سمعه قال : ما أعلم أني رأيت مثل هؤلاء القوم ، ولا سمعت فى علم الحقائق مثل كلام هذا الرجل ، ومع هذا فلا أرى لك صحبتهم ، وروي أنه قال : لا أنكر من ذلك شيئاً . [1]

---

(١) (طبقات الشافعية للسبكي ٢/ ٢٧٩)